

ورقات

في تاريخ القدس وفلسطين

عبد المعين الطلفاح

٢٠٢٠/١٤٤٢

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله، وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد.

فما تزال قضية فلسطين قضية الأمة الأولى؛ رغم ما تمرُّ به هذه الأيام من حالات ضعف وتراجع، كان من آخرها: إعلان إدارة الرئيس الأمريكي: (دونالد ترامب) ٦/١٢/٢٠١٧ القدس عاصمة لإسرائيل، وإعلان بعض الدول العربية التطبيع مع إسرائيل؛ الشيء الذي استدعى من أبناء الأمة ضرورة بعث هذه القضية من كل نواحيها، كلُّ بحسب استطاعته، ومن ذلك: تعريف الأجيال الناشئة بتاريخ القدس وفلسطين، وأن العرب أولُّ من سكنها، وأن المسلمين أحقُّ بها من غيرهم، وأنَّ سلفَ هذه الأمة أمراءَ وعلماءَ، وقادةً ومصلحين؛ قد أولوا هذا البلد من العناية والرعاية، ما جعلها محط أنظار المسلمين وغيرهم؛ لذلك وغيره كانت هذه المادة المتواضعة، والله وحده المسؤول أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم.

عبد المعين الطلفاح

الدوحة: ٦/٩/٢٠٢٠

(١) فضائل القدس والمسجد الأقصى

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد.

فالمسجد الأقصى مسرى رسول الله ﷺ وقبلته الأولى، قال الله فيه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾ [الإسراء: ١]، صلى إليه رسول الله ﷺ وأصحابه سبعة عشر شهراً، ثم ولى الله نبيه ﷺ إلى الكعبة، وجعلها قبلة المسلمين، روى البخاري عن أبي ذر ﷺ قال: قلت يا رسول الله: أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام» قال: قلت ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة، ثم أينما أدركتكم الصلاة بعدُ فصلِّ فإن الفضل فيه» يختص المسجد الأقصى بأنه أحد المساجد الثلاثة التي لا تشدُّ الرحال تبعداً إلا لها، فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى» رواه البخاري.

ما أجر الصلاة في المسجد الأقصى؟ عن أبي الدرداء وجابر مرفوعاً: «فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره مائة ألف صلاة، وفي مسجدي هذا ألف صلاة وفي مسجد بيت المقدس خمسمائة صلاة» رواه البيهقي. عن أبي ذر ﷺ قال: "تذاكرنا ونحن عند رسول الله ﷺ أيهما أفضل مسجد رسول الله، أو مسجد بيت المقدس، فقال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلى، وليوشكن أن لا يكون للرجل مثل شطن فرسه من الأرض، حيث يرى منه بيت المقدس، خير له من الدنيا جميعاً، أو قال خير من الدنيا وما فيها» أخرجه الحاكم، وصححه الذهبي، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «لما فرغ سليمان بن داود من بناء بيت المقدس، سأل الله ثلاثاً: حكماً يصادف حكمه، وملكا لا ينبغي لأحد من بعده، وألا يأتي هذا المسجد أحد لا يريد إلا الصلاة فيه، إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» فقال النبي ﷺ: «أما اثنتان فقد أعطيهما، وأرجو أن يكون قد أعطي الثالثة» سنن ابن ماجه، صححه الألباني.

ما فضائل الأرض المحيطة بالمسجد الأقصى؟ عن معاوية بن حيدة ﷺ قال: إن النبي ﷺ قال: «عليكم بالشام». وقوله ﷺ: «إن الله عز وجل قد تكفل لي بالشام وأهله». وعنه ﷺ: «ألا وإن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام».

وحديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشام أرض المحشر والمنشر». وقد وصَّى النبي ﷺ بسكنى الشام فقال:
«عليك بالشام فإنها خيرة الله في أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده».

(٢) فلسطين قبل الإسلام

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد.

فقد سكن العرب الفينيقيون ساحل البحر على أرض فلسطين قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة، ثم جاءت بعدهم قبائل العرب الكنعانيين؛ فسكنت ضفة نهر الأردن الغربية، مُنسابةً إلى البحر المتوسط، وذلك بعد مجيء الفينيقيين إليها بنحو خمسمائة سنة، ولذا كانت تسمى بـ (أرض كنعان)، كما سكنتها قبائل من جزيرة (كريت) تسمى قبائل (فلسطين)، واختلط أولئك الوافدون الجدد بالكنعانيين وغيرهم، وسميت المنطقة بعد ذلك بـ (فلسطين).

كان نبي الله إبراهيم عليه السلام يعيش في العراق موطنه الأصلي، وبعد كفر قومه بدعوته؛ هاجر وزوجته سارة، وابن أخيه لوط وغيرهم إلى أرض كنعان، عابرين نهر الفرات، ومن هذا العبور أطلق فيما بعد على بني إسرائيل اسم: (العبرانيين)، وفي أرض كنعان أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام "إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك؛ فابتنى إبراهيم مذبحاً لله؛ شكراً على هذه النعمة، وضرب قبته شرقي بيت المقدس" وهذه الأرض هي بيت المقدس التي بني فيها المسجد الأقصى فيما بعد. بني يعقوب عليه السلام في عهده معبداً على القبة التي اتخذها إبراهيم للعبادة، وصار مكان عبادة بني إسرائيل؛ إلى أن خرجوا إلى مصر، حيث يوسف عليه السلام، واستوطنها بعدهم الوثنيون، ثم أقام بنو إسرائيل في مصر إلى أن تسلط عليهم الفراعنة، ثم بعث الله إليهم موسى عليه السلام، وبدأ تعلق بني إسرائيل بالأرض المقدسة.

لَمَّا أَغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ، وَنَجَّى مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ؛ دَعَاهُمْ مُوسَى عليه السلام لِدُخُولِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَتَطْهِيرِهَا مِنَ الْوَثْنِيِّينَ؛ فَنَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَقَالُوا لِمُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾ [المائدة: ٢٤]؛ فَكَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ التِّيَةَ فِي صَحْرَاءِ سِينَاءَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَفِيهَا بَنَى مُوسَى عليه السلام قُبَةَ الزَّمَانِ، الَّتِي كَانَ يَنَاجِي فِيهَا اللهُ تَعَالَى. بَعْدَ أَنْ انْقَضَتْ مَدَّةُ التِّيَةِ؛ قَادَ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ عليه السلام بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَدَخَلَ بِهَمَّ الْأَرْضِ الْمَقْدُوسَةِ، وَأَقَامَ تِلْكَ الْقُبَةَ عَلَى صَخْرَةِ الْمَسْجِدِ، وَاتَّخَذُوهَا قُبَةَ، فَلَمَّا بَادَتْ صَلُّوا إِلَى الصَّخْرَةِ، وَصَلَّى إِلَيْهَا الْأَنْبِيَاءُ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَكَانَتْ قُبَةَ الْمُسْلِمِينَ الْأُولَى؛ إِلَى أَنْ وُلِّيَ اللهُ نَبِيَهُ ﷺ إِلَى الْكَعْبَةِ.

استولى العماليق على بيت المقدس بعد يوشع بن نون؛ طلبت بنو إسرائيل من نبيهم (صموئيل) أن يبعث لهم ملكاً، يقودهم في حرب العماليق؛ فملك عليهم طالوت، وكان في جيشه داود عليه السلام، الذي استطاع أن يقتل جالوت قائد

جيش العماليق، ويفتح بيت المقدس؛ فتهيئاً الأمر بعد ذلك لدواد، وصار ملكاً على بني إسرائيل، وأخذ يعدُّ لبناء المسجد الأقصى (الهيكل)، ولكنَّ المنية عاجلته قبل ذلك؛ فقام ابنه سليمان عليه السلام بعده ببناء (الهيكل)، كما صحَّ بذلك الحديث عن نبينا ﷺ، وظلَّ المسجد قائماً بعده؛ إلى أن حاد أهله عن دين أنبيائهم؛ فسلط الله عليهم بختنصر، فاستولى على فلسطين، وسبى أهلها، ودمر مسجدها (الهيكل)، وكان ذلك التدمير الأول له.

أعاد اليهود بناء المسجد الأقصى مرة أخرى بعد أن استولى الفرس على فلسطين، وظلوا تحت حكمهم؛ إلى أن استولى الأسكندر عليها، وتعاقب بعد ذلك على فلسطين البطالسة، والرومان الذين جددوا بناء المسجد (الهيكل) بعد أن هرم، وظل المسجد قائماً حتى بعث الله أنبياءه: زكريا وابنه يحيى، وعيسى بن مريم، عليهم السلام، وقد دلَّت نصوص الكتاب والسنة على أن المسجد كان قائماً زمنهم، وظل كذلك؛ إلى أن أقدم (طيطش) أحد ملوك الروم بعد زمن عيسى عليه السلام على تدمير بيت المقدس، بما في ذلك المسجد (الهيكل)، وكان هذا هو التدمير الثاني له، وظلَّ حال المدينة كذلك حتى وقعت حادثة الإسراء بنبينا ﷺ.

(٣) فلسطين في صدر الإسلام

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد.

فقد أسرى الله تعالى نبيّه محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، على البراق صبحه جبريل التليلاً، وربط جبريل البراق بصخرة بيت المقدس، وفي المسجد جمع الله الأنبياء؛ فأَمَّهُم نبينا محمد ﷺ، ودل ذلك على أنه الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، وكان ذلك إيداناً ببدء العهد الإسلامي في الأرض المقدسة، وأنه الصبغة الأخيرة لها، وطياً لصفحة بني إسرائيل من سجل التفضيل والاصطفاء أيضاً.

بعد معركة الأحزاب بعث رسول الله ﷺ رسائل إلى ملوك الدول، يدعوهم فيها إلى الإسلام؛ فأدرك الروم بعدها خطورة الإسلام على المسجد الأقصى؛ فأخذوا يعدون لقتالهم، ووقع أول قتال بينهم في مؤتة عام (٨ هـ)، ثم إن رسول الله ﷺ سار إليهم في معركة تبوك؛ لكن الروم فروا، ولم يلق رسول الله فيها قتالاً، وبعدها أعد جيشاً لقتالهم بقيادة أسامة بن زيد ﷺ؛ لكنه ﷺ مات قبل انطلاق أسامة ﷺ بجيشه، وأمضاه بعده أبو بكر ﷺ.

في عام: (١٥ هـ) عيّن عمر بن الخطاب ﷺ أبا عبيدة بن الجراح ﷺ قائداً عاماً لجيوش المسلمين في الشام، ووجهه لفتح بيت المقدس؛ فحاصرتها جيوش المسلمين نحواً من أربعة أشهر، ثم طلب أهلها الصلح؛ على أن يتولى تسلم المدينة منهم: الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ؛ فأجابهم أبو عبيدة لذلك، وأرسل إلى عمر ﷺ؛ فجاء عمر ﷺ وغلّامه إلى بيت المقدس، ولمّا أشرف عليهم ﷺ كان يقود البعير بغلامه؛ فأكبرته النصارى لذلك وعظّمته، فكتب لهم عمر ﷺ وثيقة أمان، التي عرفت بـ (العهد العمرية) منحهم بموجبها حرية الاعتقاد، وأمنهم فيها على صلبانهم وكنائسهم، ولبى طلبهم في إخراج اليهود من بيت المقدس.

دخل عمر ﷺ بيت المقدس صحبة بطريك النصارى، ينظر آثار الأنبياء فيها، وصلى في محراب داود التليلاً، وصلّى بالمسلمين صلاة الفجر من الغد، وأزال والمسلمون الأذى عن الصخرة، وسأل كعب الأحبار ﷺ أين يبني المسجد؛ فأشار عليه كعب أن يجعله وراء الصخرة؛ فيجمع بذلك بين قبلة اليهود وقبلة المسلمين؛ فقال له عمر ﷺ: ضاهيت اليهودية، ثم جعل المسجد في قبلي بيت المقدس، وهو المسجد العُمري اليوم. كان من الأماكن التي دخلها عمر ﷺ في بيت المقدس كنيسة القيامة، ولمّا أدركته الصلاة فيها؛ طلب منه البطريك أن يصلي فيها لأنها من مساجد الله؛ فامتنع

عن ذلك ﷺ؛ خشية أن يتبعه المسلمون، ويظنوا أن عمله سنة مستحبة، فيكروهوا بذلك النصارى، ويخرجونهم منها؛ مخالفين بذلك عهد الأمان، الذي كتب لهم ﷺ، ولأجل ذلك امتنع عن الصلاة في كنيسة قسطنطين أيضاً.

(٤) فلسطين في العصر الأموي والعباسي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد.

عَيَّن عثمان بن عفان رضي الله عنه معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام، وكان معاوية رضي الله عنه يتولى الإمامة والخطابة في المسجد الأقصى أحياناً، ولمَّا آلت إليه الخلافة؛ نودي له بالبيعة في القدس، كما أن البيعة أخذت لأكثر من خليفة أموي في المسجد الأقصى، على ظهر الصخرة، منهم: الوليد بن عبد الملك، وأخوه سليمان.

بعد أن آلت الخلافة الأموية إلى عبد الملك بن مروان؛ اهتمَّ بعمارة المسجد الأقصى اهتماماً كبيراً، وكذا فعل ابنه الوليد من بعده، فقد وجَّه عبد الملك بن مروان الأموال لبناء مسجد قبة الصخرة، ووكّل على ذلك: رجاء بن حيوة، ويزيد بن سلام، وجمع لذلك الصناع من أطراف البلاد، وأمر رجاء بن حيوة ومن معه أن يفرغوا الأموال على المسجد، ولا يتوقفوا فيه، فبنوا النفقات وأكثروا، وبنوا القبة؛ فجاءت من أحسن البناء، وفرشها بالرخام الملون، وعملا للقبة جلالين: أحدهما من اليود الأحمر للشتاء، وآخر من آدم للصيف، وحققها بأنواع الستور، وفرشها والمسجد بأنواع البسط، وأقاما لها سدنة وخداماً بأنواع الطيب والمسك، والعنبر والزعفران، وكان الرجل إذا رجع من بيت المقدس إلى بلاده؛ توجد منه رائحة المسك والطيب والبخور أياماً، ويعرف أنه قد أقبل من بيت المقدس، وأنه دخل الصخرة، وما يزال مسجد قبة الصخرة قائماً معروفاً إلى يومنا هذا، ذو قبة ذهبية، في قلب السور القديم للمسجد، الذي يضم نحواً من مئتي مَعْلَم، بين مسجد، ومأذنة، ومصطبة، وغيرها.

بنى عبد الملك بن مروان ما يعرف اليوم بالمصلى المرواني، وكان يطلق عليه التسوية الشرقية، والمقصود منها: تسوية هضبة المسجد الأقصى؛ ليتسنى بناء المسجد على أرض مستوية. يقع المصلى المرواني في الجهة الجنوبية الشرقية داخل سور المسجد الأقصى، ويتكون من (١٦) رواقاً، ويعدُّ أكبر مساحقة مسقوفة داخل المسجد الأقصى اليوم، حُصص زمن عبد الملك بن مروان لدراسة الفقه، والعلوم الشرعية، وظل عامراً كذلك؛ إلى أن استولى الصليبيون على القدس عام: (٤٩٢ هـ)؛ فحولوا هذه التسوية إلى اسطبلات لحيواناتهم، ومخازن لأسلحتهم، ولمَّا فتح صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس عام: (٥٨٣ هـ)؛ أعادها لما كانت عليه سابقاً، ثم هُجر هذا المكان سنوات طويلة؛ إلى أن أطلق الشيخ: رائد صلاح نداءً لإعادة إعمار الأماكن المقدسة، فأعيد ترميم المصلى المرواني، وأعدَّ للصلاة، وذلك عام: (١٩٩٦)، بإشراف هيئة الأوقاف، ولجنة الإعمار في المسجد الأقصى.

ضرب زلزال بيت المقدس عام: (١٣١ هـ) أواخر العهد الأموي، أدى لتهدم الجزء الشرقي والغربي من المسجد؛ ولمَّا زاره الخليفة العباسي: أبو جعفر المنصور، عام: (١٤١ هـ)؛ أمر بإعادة بنائه وترميمه، وبعد ذلك ضرب المسجد أكثر من زلزال، كان الخلفاء العباسيون يقومون على إصلاح ما تهدم منه، وقد عمَّ الأمنُ بيت المقدس زمن الخلفاء العباسيين، في عصورهم الزاهية.

وقد استولى الفاطميون العبيديون على بيت المقدس، ثم استرده منهم القائد السلجوقي: ألب أرسلان، ثم استطاعوا الاستيلاء عليه مرة أخرى، وظلَّ في أيديهم حتى مجيء الحملة الصليبية الأولى عام: (٤٩١ هـ).

(٥) فلسطين والحلمة الصليبية الأولى

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد.

أدى انتصار السلاجقة على البيزنطيين في معركة ملاذكرد عام: (٤٦٣ هـ) إلى تغير أوضاع نصارى المشرق؛ مما اضطرهم إلى توجيه نداء استغاثة إلى بابا الفتكان؛ فاستغل البابا هذا النداء، وقام بعقد مؤتمر في فرنسا، عام: (١٠٩٥ م) عرف بمؤتمر: «كليرمونت» دعا فيه أوروبا كلها إلى إنقاذ قبر المسيح، والأرض المقدسة من ذلکم الجنس اللعين الذي طغى فيها، وصور لهم بشاعة ما يلقاه النصارى على يد السلاجقة المسلمين؛ فألهبت كلماته هذه حماسة أوروبا، وأثارت حنقها على المسلمين، وتعالّت لذلك أوروبا على كل خلافتها، ونزاعاتها، وأحقادها، واجتمعت على حرب المسلمين، فجهزت الحملة الصليبية الأولى على بلاد المسلمين.

وصلت الحملة الصليبية الأولى بحر القسطنطينية عام: (٤٩١ هـ)، وكان قوامها قرابة مليون مقاتل، ومنه سارت إلى بيت المقدس، واستولت في طريقها إليه على المدن والقرى الشامية، مرتكبةً أبشع المجازر والخيانات، ولم يستطع السلاجقة الوقوف بوجهها؛ نظرًا للتمزق السياسي الذي أصابهم، والحزب الاقتصادي الذي عمّ بلادهم، وفي عام: (٤٩٢ هـ) وصل الصليبيون بيت المقدس، وكان الفاطميون -حكام مصر- قد أرسلوا جيشًا لحماية القدس من الصليبيين، فحاصر الصليبيون القدس (٣٩) يوماً، ضرب أهلها خلالها أروع الأمثلة في البطولة، والدفاع عنها، وقاتل معهم الفاطميون، ثم سرعان ما انسحب الفاطميون من القدس؛ فانهارت بعدها قوة المسلمين، ودخل الصليبيون بيت المقدس.

توجّه الصليبيون إلى المسجد الأقصى؛ فقتلوا فيه أكثر من سبعين ألف مسلم؛ ممن احتسى فيه من العلماء والعُباد والزهاد، وغيرهم، ثم توزّعوا في القدس فقتلوا أهلها، ومارسوا فيهم أبشع صنوف القتل والتعذيب، فقطعوا الرؤوس، وجمعوها أكوامًا، وكذا فعلوا بالجثث، وكانوا يرمون الناس من الشواهد، حتى لقد غاصت خيولهم بدماء القتلى، فلم يعد يُرى في المدينة إلا الموت، والجثث، والأشلاء، ودخلوا على اليهود في معبدهم؛ فأحرقوهم فيه، ولا يُعرف كم كان عددهم فيه.

بعد أن انتشرت رائحة الموت في بيت المقدس، وعلت أصوات أجراس النصارى فوق المسجد الأقصى، ودُيِّسَت الصخرة، وُرفِعَ عليها الصليب؛ صحت الأمة من سباتها، ونهضت لمقاومتهم، وبقي الصليبيون في بيت المقدس واحداً وتسعين سنة، لا يرفع في المسجد الأقصى أذان، ولا تقام فيه جمعة، ولا جماعة! إلى أن أكرم الله هذه الأمة بنور الدين، وبعده صلاح الدين؛ فخلص المسجد من رجس الصليبيين، وذلك عام: (٥٨٣ هـ).

(٦) القدس في قبضة الصليبيين وبدايات المقاومة الإسلامية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد.

استطاع بعض المقدسيين الهرب من القدس - بعد سقوطها - إلى دمشق، ومنها إلى بغداد، يستنهضون الخليفة العباسي؛ ليعلن النفير العام ضد الصليبيين، وينقذ من تبقى من أهل القدس المسلمين، ولكن الخليفة كان أضعف من أن يحرك ساكناً؛ فوجههم إلى السلاجقة، الذين لم يرفعوا بذلك بالاً؛ فلاقى من بقي من المسلمين في القدس شتى أنواع القتل والعذاب؛ حتى إن الصليبيين أخذوا يقرون بطون المسلمين؛ ظانين أنهم قد ابتلعوا نقودهم ودراهمهم، ولمّا طال عليهم ذلك؛ أخذوا يجمعونهم أكواماً ويحرقونهم، ثم يبحثون في رمادهم عن الدراهم والنقود، وقد اختصر الصليبيون ما فعلوه بأهل القدس في رسالتهم إلى البابا قائلين: "إذا ما أردت أن تعلم ما جرى لأعدائنا الذين وجدناهم بالمدينة، فنقُ أنه في إيوان سليمان، أو معبده؛ كانت خيولنا تخوض في بحر من دماء الشرقيين المتدفقة إلى ركبتيها".

أحدث الصليبيون تغييرات كثيرة في المسجد الأقصى، وفيما جاوره من أجزاء البلدة القديمة، لكنهم لم يمسوا قبة الصخرة بسوء، وإنما حوّلوا مسجدها إلى كنيسة، رفعوا عليها الصليب، ووضعوا فيها التماثيل والصور، واتخذوا من مكان الأروقة المعمدة مستودعات لأسلحتهم، وجعلوا زاوية الحرم الجنوبية الشرقية اصطبلات لخيولهم، وبنوا في القدس عدداً من الكنائس. أقام الصليبيون مملكة لاتينية، امتدت من بيروت إلى العقبة، اتخذوا القدس عاصمة لها، ثم أنشؤوا في القدس فرقتين كبيرتين، هما قوام مملكتهم، الأولى اسمها: (الداوية) اختصت بقتال المسلمين بشراسة وهمجية، ولقي المسلمون منها شدةً واضطهاداً، والثانية اسمها: (الاستبارية) عملها الاهتمام بحجاج بيت المقدس، والمرضى النصارى، ثم تحولت والداوية إلى هيئة حربية، مقرها المسجد الأقصى.

أدرك الصليبيون أن مُقاهم في القدس مرهون بالاستيلاء على ساحل البحر المتوسط؛ ليبقى باب التواصل مع أوروبا مفتوحاً، وبإثارة النعرات والخلافات بين المدن الإسلامية؛ لتبقى مقسّمةً ضعيفةً، أعانهم على تحقيق ذلك: الباطنيون الإسماعيليون. هبّ المسلمون بقيادة السلاجقة لقتال الصليبيين، وتخليص المسجد الأقصى من أيديهم، وبدأت معاركهم من أرض الجزيرة الفراتية، التي كانت أول من اكتوى بنار الصليبيين، واستطاعوا أن يهزموهم في عدة معارك، كان من أعظمها: معركة حرّان، وظلوا يقاتلون الصليبيين بقيادة السلاجقة؛ إلى أن ظهر على ساحة الجهاد: عماد الدين زنكي، وبظهوره بدأت مرحلة جديدة من مراحل الحروب الإسلامية الصليبيّة.

(٧) فلسطين بين مشروع نور الدين وتحرير صلاح الدين

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد.

ارتبط تحرير بيت المقدس عند كثير من المسلمين بصلاح الدين الأيوبي، وغاب عنهم ذكر الرجل العظيم، الذي رسم صورة النصر وخطط له، ووضع قواعده وأرساها، وأعدَّ له الرجال وهيئاًها؛ إنه القائد العظيم: نور الدين محمود زنكي، الذي جعل من عمر بن عبد العزيز قدوةً له في استنهاض الأمة، وإعادة بنائها؛ وما كان صلاح الدين إلا ثمرة من ثمرات مشروعه الكبير، فلم يترك نور الدين الصليبيين يشعرون بالأمن في بلاد المسلمين، بل ظل يطارهم من مكان لمكان، ومن حصن لحصن، وعيونه على بيت المقدس، حتى إنه قضى أكثر حياته على ظهور الخيل، وكان من أهم أعماله: هزيمة الفاطميين حكام مصر، وتولية صلاح الدين عليها، الذي استطاع تطهيرها من آثارهم.

معركة حطين الصغرى: كانت معركة صفوريةً باكورة انتصارات صلاح الدين الكبرى على الصليبيين، كسر فيها شوكتهم، وكبدهم خسائر كبيرة؛ فاستعدوا للقائه ثانية؛ فاستدرجهم صلاح الدين إلى سهل حطين، واستطاع أن يحول بينهم وبين ماء طبرية، ودارت بينهم معركة حطين (٥٨٣ هـ)، هزمهم فيها صلاح الدين نفسياً؛ قبل أن يهزمهم عسكرياً، وذلك بعد أن استولى على صليبيهم الأكبر صليب الصلبوت، فوهن ذلك فيهم فهزموا؛ بعد أن قتل منهم خلقٌ كثير، ووقع كثير منهم في الأسر، على رأسهم الملك: جاي، والأمير: أرناط، وكانت معركة حطين مقدمةً لفتح بيت المقدس.

فتح بيت المقدس: توجه صلاح الدين إلى القدس في نفس العام (٥٨٣ هـ)، وعرض على أهلها الصلح، وتسليمها دون قتال، لكنهم أبوا وتعنتوا، فأقسم ألا يدخلها إلا بحدِّ السيف، فحاصرها، وبدأت ضرباته إليها، ودام حصارها أياماً، حتى إذا ما ضعف أهلها، وملأوا القتال، وأيقنوا أنَّ المدينة ساقطة؛ عرضوا عليه الصلح كما طلب، فأبى إلا أن يبرَّ بقسمه، فخرج إليه قسيس من قساوستها، وكلمه في أن يدخلها صلحاً، يأخذ الجزية ممَّن قدر على دفعها، ويأخذ البقية أسرى، وإلا فس يقتلون ذراريهم، ونساءهم، وأنفسهم؛ بعد أن يقتلوا من بأيديهم من أسرى المسلمين؛ فقبل صلاح الدين ذلك، وكفَّر عن يمينه، ثم دخل القدس سلماً بعد أيام من حصارها، وأخذ الجزية ممَّن قدر على دفعها من الصليبيين، ووقع الباقيون في الأسر.

هرقل وأسرى الصليبيين: خرج هرقل من القدس بخزائنه، تاركاً فقراء الصليبيين بيد صلاح الدين أسرى، لكنّ صلاح الدين أحسن إليهم، ومَنَّ على أكثرهم، وضرب أروع الأمثلة في سماحة الإسلام، وحسن تعامله مع الأمم الأخرى، ثم دخل المسجد الأقصى، وطهره والقدس من أدران النصارى، وأقام للمسجد إماماً، وخطيباً، وقاضياً، ثم أقيمت فيه أول صلاة جمعة، وعمّت الفرحة بلاد المسلمين بهذا النصر العظيم.

(٨) فلسطين بعد صلاح الدين وتسليم المسجد للصليبيين

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد.

ما إن مات صلاح الدين الأيوبي؛ حتى أرسل الصليبيون حملة صليبية رابعة لاسترداد بيت المقدس؛ هزمها خلفه: الملك العادل في اللاذقية؛ فأدرك بعدها الصليبيون أن مصر هي مركز المقاومة الحقيقية في العالم الإسلامي ضدّهم، وأنها النقطة الأولى في طريق الاستيلاء على بيت المقدس؛ فأرسلوا حملة صليبية خامسة وجهتها دمياط، حاصرتها تسعة أشهر؛ عرض عليهم خلالها الملك الكامل التنازل لهم عن بيت المقدس، وعن كل الأراضي والمدن التي كانت بأيديهم قبل معركة حطين، ولكنهم رفضوا ذلك، واستطاعوا الاستيلاء على دمياط عام: (٦١٦ هـ)، وكان ذلك فاجعة عظيمة حلت بالمسلمين.

لقد كان الملك الكامل متساهلاً جداً عندما قدّم هذا العرض للمغري للصليبيين؛ لكنه استطاع بعد ذلك هزيمتهم في المنصورة مقبرة الصليبيين، وأجبرهم على طلب الصلح معه، مقابل تنازلهم عن دمياط، وخروجهم من كامل مصر، وسلموا دمياط للمسلمين، عام: (٦١٨ هـ)، وكان يومها يوماً عظيماً من أيام الإسلام.

ما إن زال الخطر الصليبي عن بيت المقدس؛ حتى عاد الأمراء الأيوبيون إلى سالف عهدهم، وانبعثت الخلافات والنزاعات بينهم من جديد، فخرج الملك المعظم في الشام عن طاعة أخيه الملك الكامل في مصر، وأخذ يعمل لتوسيع مملكته، فتحالف مع الخوارزميين لتحقيق ذلك؛ مما دفع الملك الكامل لمراسلة الامبراطور البيزنطي؛ ليمدّه بقوة عسكرية، تضعف من قوة أخيه المعظم، على أن يمنحه الكامل بيت المقدس، والمدن الساحلية التي فتحها صلاح الدين، ولقد كان الملك الكامل ينظر إلى بيت المقدس على أنه عبء ثقيل، لا بدّ من التخلص منه، لذلك كان كثيراً ما يعرضه على الصليبيين إن أحس بالخطر يهدد مركزه، وكأنه جارية في سوق النخاسة، متناسياً بذلك أنهار الدماء التي جرت لتخليصه من أيدي الصليبيين، بقيادة عمه صلاح الدين.

استغل الامبراطور البيزنطي العرض المغربي من الملك الكامل، وجاء بحملة صليبية سادسة، وقّع خلالها صلحاً مع الكامل، عرف بصلح يافا، عام: (٦٢٧ هـ)، سلمت على إثره القدس للصليبيين، ودخلها الامبراطور فردريك الثاني. أعقد بعده الكامل المال على الأمراء الأيوبيين؛ ليتستروا على تسليم بيت المقدس للصليبيين، وقال لهم: "إنّا لم نسمح

للصليبيين إلا بالكنائس، والمسجد ما يزال على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم بالأعمال والضياع"، لكنّ هذا الفعل الشنيع منه أثار حفيظة المسلمين، وعدوه تفریطاً عظيماً منه بحق الإسلام والمسلمين.

أمر الكامل قاضي نابلس أن يوعز إلى المؤذنين في القدس ألا يصعدوا المنابر، ولا يؤذنوا في الحرم؛ مراعاةً منه لمشاعر الامبراطور الصليبي؛ فعيرهم الامبراطور بذلك، وعابه عليهم، وقال لهم: "تغيّرون شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي، فلو كنتم عندي في بلادي، هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟ الله الله لا تفعلوا، هذا أول ما تنقصون به عندنا". ظلّت القدس بأيدي الصليبيين إلى أن استردها منهم: الناصر داود، عام: (٦٣٧ هـ).

(٩) فلسطين بعد صلاح الدين واسترداد المسجد من الصليبيين

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد.

معركة حطين الصغرى: أدى النزاع بين الأيوبيين إلى التفريط ببيت المقدس مرة أخرى، وتسليمه للصليبيين؛ فبعد أن احتدم الصراع بين صاحب مصر، نجم الدين أيوب، وبين عمه صاحب دمشق الصالح إسماعيل؛ تحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين، ضد نجم الدين في مصر، وتعهد لهم مقابل ذلك أن يعطيهم بيت المقدس، ويعيد لهم مملكة الصليبيين، على ما كانت عليه قديماً، بما فيها الأردن؛ فثار المسلمون في مصر والشام على الصالح إسماعيل، ورفضت بعض حاميات جيشه أوامره، وانضمت إلى جيش نجم الدين في مصر، وسارع الصليبيون فاستولوا على بيت المقدس، وذلك عام: (٦٤١ هـ) ودنسوا الصخرة، وأبطلوا الأذان والإقامة في المسجد الأقصى، وأعلنوا فيه بالكفر، وخرج الصالح إسماعيل صاحب دمشق بجيش كبير لغزو مصر؛ فانشقت الحامية الشامية عن الصالح إسماعيل، ومالت مع جيش مصر على الصليبيين، فهزموهم هزيمة عظيمة، عرفت بمعركة حطين الصغرى.

الخوارزميون والمسجد الأقصى: الخوارزميون مسلمون أتراك، كان لهم دولة كبيرة في خوارزم، سقطت على يد المغول عام: (٦٢٨ هـ)، تفرقوا بعدها في البلاد، فمنهم من ذهب إلى سلاجقة الروم، ومنهم من أوى إلى الأيوبيين في مصر، استعان بهم نجم الدين صاحب مصر؛ فاستطاعوا استرداد بيت المقدس من الصليبيين، عام: (٦٤٢ هـ) وطردهم منه، ثم توجهوا بعدها إلى مصر، واتحدوا مع جيش نجم الدين في مصر، وخاضوا مع الحلف الشامي الصليبي في غزة معركة عظيمة، هزمهم فيها هزيمة نكراء، وذلك عام: (٦٤٢ هـ)، استطاع نجم الدين أيوب بعد معركة غزة بسط سيطرته على غزة والقدس، وغيرها من المدن، وتوجيه ضربات موجعة للصليبيين.

شعر الصليبيون بعدها في أوروبا بتعاضم قوة المسلمين في المشرق؛ فقاموا بإرسال حملة صليبية سابعة إلى المشرق الإسلامي، جعلوا على قيادتها الملك: لويس التاسع، وكانت وجهتها مصر؛ فاستعد لها صاحب مصر أيما استعداد، وجرت في هذه الأثناء اتصالات بين الصليبيين والمغول؛ لاحتلال بيت المقدس، لكن هذه المراسلات لم تفلح، ورسدت الحملة قبالة دمياط، واستطاع الصليبيون الاستيلاء عليها عام: (٦٤٧ هـ)؛ رغم ما قام به الأيوبيون من تحصين سابق لها.

بعد استيلاء الصليبيين على دمياط؛ قرروا الزحف إلى بيت المقدس بعد أن يستولوا على القاهرة، وكان المسلمون بقيادة تورانشاه -الذي خلف أباه نجم الدين أيوب- قد تمركزوا في المنصورة مقبرة الصليبيين، وفيها جرت بينهم وبين الصليبيين معركة عظيمة، انهزم فيها الصليبيون هزيمة منكرة، ووقع فيها لويس التاسع أسيراً بيد المسلمين، مما اضطرهم لعقد صلح مع المسلمين، مدته عشر سنين، ينسحبون بموجبه من دمياط، وفشلت بذلك حملتهم الصليبية السابعة في الاستيلاء على بيت المقدس، ثم خلف المماليك الأيوبيين في الحكم، واستطاعوا تطهير بلاد الشام ومصر من الوجود الصليبي، والقضاء على آخر مملكة صليبية في الشام.

(١٠) تيودر هرتزل وفسطين وموقف السلطان عبد الحميد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد.

تيودر هرتزل وحاخامات اليهود: حبك تيودر هرتزل خيوط المؤامرة على فلسطين في مؤتمر (بال) في سويسرا، عام: (١٨٩٧م)، وخرج المؤتمر بقرارات عدة، رسمت طريق هجرة اليهود إلى فلسطين، وكان من أبرزها: محاولة الحصول على موافقات دولية على مشروعية الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وإنشاء شركات لتمويل شراء الأراضي الفلسطينية، إضافة لذلك وجّه تيودر هرتزل رسائل إلى العائلة اليهودية الثرية: (روتشيلد) يلتمس منهم فيها الدعم المالي؛ لإنقاذ اليهود المعذبين في العالم، وقد لقيت دعوة تيودر للهجرة إلى فلسطين معارضةً كثيرة من اليهود، على رأسهم الحاخامات، فكانوا يرونها قريبةً من الكفر؛ لأنها تستعجل إرادة الله في عودة اليهود لأرض الميعاد، كما أنها دعوة أشبه ما تكون بالخيال، ولكنه كان رجلاً عنيداً، مؤمناً بدعوته؛ فثبت عليها حتى أثمرت.

تيودر والسلطان عبد الحميد الثاني: أدرك تيودر هرتزل أن أمامه عقبة كبيرة لن يتمكن من تحقيق حلمه في فلسطين قبل أن يتجاوزها، وهي السلطان: عبد الحميد الثاني؛ فقابلته عام: (١٩٠٢) وعرض عليه قضاء ديون العثمانيين وغيرها من المغريات؛ مقابل إعطاء اليهود وطنًا في فلسطين؛ فرفض السلطان عبد الحميد كل تلك العروض، وأغلق كل الأبواب في وجه تيودر؛ لأنه أدرك -قبل غيره- أبعاد هذه المؤامرة وأخطارها، وأخذ يتتبع تفاصيلها في العالم، ويتخذ من القرات في فلسطين ما يحدُّ بها من هجرة اليهود إليها؛ وأدرك تيودر واليهود أن وجود السلطان عبد الحميد يعني ضياع حلمهم في فلسطين؛ فعملوا على إسقاطه، وكان لهم ذلك بأيدي أعضاء جمعية: الاتحاد والترقي التركية.

وعد بلفور: كان من آثار هزيمة العثمانيين وألمانيا في الحرب العالمية الأولى؛ أن حصل تيودر هرتزل من صاحبه بلفور، وزير الخارجية البريطاني على وعد، يمنحهم فيه حقَّ إقامة وطن في فلسطين، وكان الوعد مجرد خطاب، لا يحمل أي صبغة قانونية، ومع ذلك أصبح الأصل الرئيس، الذي يعتمد عليه اليهود في إقامة دولتهم في فلسطين، وبعده أخذوا يتوافدون إليها، تدعهم في ذلك إنجلترا، وبدأت ضدّهم حركات المقاومة الشعبية، وكان من أبرز قادتها: عز الدين القسام.

أخطر قرار أُتخذ بحق فلسطين: في عام: (١٩٤٨م) أُعلن قيام دولة إسرائيل؛ وفقاً لقرار الأمم المتحدة، الذي قضى بتقسيم فلسطين إلى دولتين: يهودية وفلسطينية، وكان بعده النكبة، التي خسرت فيها خمس دول عربية الحرب مع إسرائيل.